

الصورة التشبيهية في قصيدة "طيبة الغراء" للشيخ يوسف النبهاني

الدكتور آدم الحاج عثمان كوبي

adamukobi@yahoo.com

مقدمة:

تحاول هذه المقالة أن تأخذ المتلقي في جولة قصيرة في قصيدة طيبة الغراء للشيخ يوسف النبهاني، للتعرف على واحد من أهم وسائل تشكيل الصورة عند الشاعر، وقد مهد الباحث لتحليل هذه الوسيلة بعد تعريف الشاعر، بالحديث عن المصادر التي استقى منها النبهاني ألفاظه ومواده التي شكل بها صوره التشبيهية، ولما كانت الصور التشبيهية في القصيدة كثيرة ومتنوعة، قسمها الباحث إلى ثلاثة أنواع، منها ما تم تقسيمه بناء على بنيته التركيبية، أو ما قسم باعتبار حسية طرفي التشبيه أو تجريدهما، و ما قسم نظرا إلى بساطته أو تركيبه، وفي الأخير يلخص أهم خصائص صور الشاعر التشبيهية في الخاتمة.

ترجمة الشاعر:

هو يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن محمد ناصر الدين النبهاني، نسبة إلى بني نبهان. ولد في يوم الخميس سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م بقرية "إحزم" التي تقع على بعد ٢٨ كلم جنوب حيف في القسم الجنوبي من جبل عامل بأرض فلسطين في ولاية بيروت التابعة للدولة العثمانية^١.

حفظ القرآن الكريم وكثيرا من المتون في الفقه، والنحو، والبلاغة عند والده، وهذه العلوم من أهم مؤهلات الحصول على القبول للالتحاق بجامعة الأزهر الشريف في تلك الأيام^٢.

ولما بلغ سبع عشرة سنة، التحق بالأزهر الشريف يوم السبت^٢ غرة المحرم سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٦م، فتعلم عند جهازة علمائها العلوم الشرعية واللغوية، حتى ارتوى ونال إجازات كثيرة في فنون متعددة.

بدأ عمله مع الحكومة سنة ١٨٨١م، حيث تولى منصب قاضي ولاية الموصل لمدة خمسة أشهر. ورئيس محكمة الجزاء في اللاذقية ١٨٨٤م، ثم نقل إلى مدينة بيروت ليرأس محكمة الحقوق عام ١٨٨٨م، وظل على هذا المنصب ما يقارب عشرين عاما، حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٠٩م.

سافر إلى المدينة المنورة مجاورا للرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يعد إلى قريته إلا في سنة ١٩١٤م، حيث بقي فيها معلما ومرشدا، حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ١٩٣٢م، وله من العمر ثلاث وثمانون سنة رحمه الله تعالى.^٤

منزلته الشعرية:

يعدّ الشيخ يوسف النهاني من كبار شعراء المديح النبوي في عصره، وقد خلف ديوانا - العقود اللؤلؤية في المدائح الحمديّة - يحتوي على ما لا يقل عن خمس وعشرين قصيدة، معظمها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما الفنون الشعرية التي طرقتها، فمعظمها في المديح النبوي، ومدح بعض شيوخه، كمدحه للشيخ محي الدين عربي، والتوسل، مثل توسله بأسماء الرسول صلى الله عليه وسلم، كما نظم بعض قصائده في الوعظ والإرشاد، وخير مثال ذلك رائيته الكبرى التي نظمها لتحذير المسلمين عن إدخال أولادهم في مدارس النصارى، أو رائيته الصغرى في ذم البدعة ومدح السنة.

وتمتاز قصائده بطول النفس حيث بلغ عدد بعضها (١٠٠٠) بيتا - طيبة الغراء - أو (٧٥٢) بيتا - الرائية الكبرى - أو (٥٥٢) بيتا - الرائية الصغرى - وغيرها. ومما

تمتاز به قصائده هي سهولة الألفاظ، التي لا تنحط إلى الألفاظ السوقية، وقد ساعد على ذلك كون معظم شعره يدور في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشمائله العطرة.
الصورة التشبيهية:

التشبيه في اللغة مشتق من شبّه، يشبه، تشبيهاً، فهو مشبّه، والمفعول مشبّه. ° وجاء في لسان العرب^٦ "الشبه والتشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء بالشيء مثله" ويدل في الاصطلاح حسب تعريف العلوي على^٧ "الجمع بين الشيئين أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها". فتشير لفظ "الشيئين" إلى المشبه والمشبه به، ولفظ "بمعنى ما" إلى المنطقة التي يلتقي فيها المشبه والمشبه به، وهو وجه الشبه، ولفظ "بواسطة الكاف وغيرها" يشير إلى أداة التشبيه بأنواعها المختلفة. وقد ذهب كثير من البلاغيين القدامى إلى حصر وظيفة التشبيه في تقريب المعنى وإيضاحه أو حفظ الحقائق والمعارف والتجارب، فكان الوضوح غايته القصوى، ويؤيد هذا الاتجاه، النقاط الأربعة التي حددها الرماني لتكون معياراً لجودة التشبيه وهي:

أ/ إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تحس.

ب/ إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت عليه.

ج/ إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها.

د/ إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها.

وأما مفهوم الصورة التشبيهية عند المحدثين فيقول عنها عدنان حسين قاسم:^٨
إن التشبيه تصوير يكشف عن حقيقة الموقف الجمالي الذي عاناه الشاعر أثناء عملية الإبداع، ويرسم أبعاد ذلك الموقف عن طريق المقارنة بين طرفي التشبيه، مقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الطرفين على الآخر، بل تربط بينهما في حالة، أو صيغة أوضح، وهو يحس بجوهر الأشياء ويجعلها قادرة على نقل الحالة الشعورية، أو الخبرة الجمالية التي امتلكت ذات الشاعر وسيطرت على أدواته".

وبهذا رفضت الدراسات البلاغية الحديثة حصر التشبيه في إطار تقريب المعاني وإيضاحها كما كان في الحقيقة؛ لأن هذا يفقده حيويته التي هي تصوير التجربة الشعرية عبر المقارنة بين طريفي التشبيه، فيتحول إلى عملية قائمة على المنطق والعقل.

ومهما يكن فإن التشبيه يهدف إلى تقريب المعنى وإيضاحه وترسيخه في النفس، خصوصا إذا مزج الصورة بقليل أو كثير من الخيال، يقول العلوي^٩ "فإنه يخرج المبهم إلى الإيضاح والملبس إلى البيان، ويكسوه حلة الظهور بعد خفائه، والبروز بعد استتاره". كما أنه يساهم في نقل الأفكار بأقل قدر من الألفاظ، كقوله تعالى ((وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا. [سورة الكهف: ٤٥]. وإذا حاولنا تفصيل ما تضمنه التشبيه نضطر إلى كلام أطول بكثير مما جاء في الآية الشريفة.

مصادر تشكيل الصورة التشبيهية لدي النبهاني

تدل مصادر تشكيل الصور التشبيهية على الحقول الدلالية التي تدور عليها تشبيهات النبهاني، وقد تنوعت هذه الحقول، منها ما يرجع إلى الطبيعة، أو الحيوان، أو الإنسان، أو الثقافة، والجدول التالي يوضح حضور كل حقل.

الرقم	الحقول الدلالية	العدد	النسبة
١	الطبيعة	٤٣	٣٧,٧%
٢	الإنسان	٤٠	٣٥,٠%
٣	الثقافة	١٦	١٤,٠%
٤	الحيوان	١٥	١٣,١%
	المجموع	١١٤	

يشير الجدول السابق إلى تفوق حقل الطبيعة على غيره، وليس هذا غريبا لأنها تمثل المحيط الذي يعيش فيه الشاعر، ما يسهل له التقاط مادتها لتشكيل صورته، وتصدر قائمة

الطبيعة المواد النورانية والسائلة. والشمس هي حجر الزاوية في المواد النورانية، منها تستمد باقي النجوم والكواكب أنوارها. ومن أمثلة ذلك قوله في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالشمس في الإشراق عند ولادته.

وَلَدَتْهُ كَالشَّمْسِ أَشْرَقَ مَسْرُورًا * * * رَأَى وَتَمَّتْ بِحَتْنِهِ السَّرَّاءُ^{١٠}

وفي بعض الأحيان يستعمل لفظ الذكاء بدلا من الشمس ليدل على رفعة منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم، بين أصحابه رضوان الله عليهم:

طَلَعُوا فِي سَمَاءٍ بَدْرٍ نُجُومًا * * * بَيْنَهُمْ سَيِّدُ الْأَنْمِذْكَاءِ^{١١}

أما النجوم فإنها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبهم يهتدي الناس:

هُم نَجُومٌ فِي أَفْقِ شَرَعِ أَبِي الْقَا * * * سَمِ بَانُوا لِلْمُؤْمِنِينَ أَضَاءُ^{١٢}

أما المواد السائلة فالبحر هو القائد فيها، كونه البؤرة التي يستمد منها الأنهار والجداول، فقد جاء البحر وصفا لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لما يمتاز به من سعة وغزارة:

بَحْرٌ حِلْمٍ لَوْ قَطْرَةٌ مِنْهُ فَوْقَ الذِّ * * * نَارٍ سَأَلَتْ لَزَأَمِنَهَا الصَّلَاءُ^{١٣}

وكذلك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الشريعة الغراء، فإنها شاملة لجميع حوائج الناس، فهي كالبحر في سعتها، أما باقي الشرائع الأخرى فلم تجاوز الجداول:

شَرَعُهُ الْبَحْرُ وَالشَّرَائِعُ تَجْرِي * * * مِنْهُ إِمَّا جَدَاوِلٌ أَوْ قِنَاءُ^{١٤}

وقبل الانتقال إلى حقل الإنسان يتقدم الحديث عن الحيوان مع أنه في العدد أقل من الإنسان، لأجل العلاقة الوثيقة بين الطبيعة والحيوان، ما جعل بعض الدارسين يدمجونه في حقل الطبيعة. وقد أخذت الحيوانات المفترسة نصيب الأسد منها حيث جاءت في وصف شجاعة النبي وأصحابه ويقود الليث تلك الحيوانات، فوصف شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم بشجاعة الليث في قوله^{١٥}:

وَالنَّبِيُّ الْأُمِّيُّ كَاللَيْثِ يُرْدِي الشِّدَّ * * * شَرَكٌ مِنْهُ تَقَدَّمَ وَاجْتَرَأَ

كما وصف سيد الشهداء سيدنا حمزة - رضي الله عنه بالأسد - في قوله: ^{١٦}

أَسَدُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ الَّذِي دَا ** نَتَ لَهُ بِالسِّيَادَةِ الشَّهَادَةُ

ومن الحيوانات التي وظفها النبهي في التشبيه الطباء، وصف بها الكفار عندما رأوا

الصحابة رضوان الله عليهم، و معلوم أن الطباء لا تستقر في مكان يتواجد فيه الأسود:

دَخَلُوا مَكَّةَ فَفَرَّتْ أَسْوَدٌ ** مِنْ قُرَيْشٍ كَأَنَّهَا هَمَّ طَبَّاءٌ ^{١٧}

أما آباء الكفار فهم كالكلاب، فلا يؤثر نباحهم، أي استهزاءهم وسبهم لأبنائهم:

وَإِذَا أَسْلَمَ الْفَتَى فَأَبَوْهُ ** مِنْهُمْ عِنْدَهُ وَكَلَبَتْ سِوَاءُ ^{١٨}

وحقل الإنسان هو الذي يلي الطبيعة في الكثافة، وهذا يشمل صفات الإنسان

وأحواله وأعضائه وآلاته وأدواته. يصور لنا النبهي النبي صلى الله عليه وسلم بأنه هو

أصل الكائنات فهو للكل يشبه الأب والوالد:

فَهُوَ لِلْكَلِّ وَالِدٌ وَأَبُو الْخَلِّ ** قِيَّ جَمِيعاً وَهُمْ لَهُ أَبْنَاءُ ^{١٩}

ويصفه مرة أخرى بأعضاء الإنسان فهو رأس وأصحابه أعضاء:

هُم سَيْوْفٌ لِلْمُصْطَفَى وَرِمَاحٌ ** وَهُوَ رَأْسٌ وَهُمْ لَهُ أَعْضَاءُ ^{٢٠}

أما الأدوات فنجده يصف أبا طالب بالترس أمام أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم:

كَانَ تُرْساً يَقِيهِ عَادِيَةُ الْأَعْمَى ** دَائِ رَأْسًا تَهَابُهُ الرُّؤْسَاءُ ^{٢١}

أما السوط فيصبح مصباحاً في الهداية كما جاء في قوله: ^{٢٢}

وَلِذِي النُّورِ أَشْرَقَ السُّوْطُ كَالْمَصْدُوقِ ** بِأَحْمَنِهِ وَالْجِبْهَةِ الْغُرَّاءِ

أما السيوف فإنها تشبه بالصحابة لمواجهتهم أعداء الله ودفاعهم المستميت للإسلام

ورسوله، يقول في ذلك النبهي: ^{٢٣}

هُم سَيْوْفٌ لِلَّهِ جَلَّ تَعَالَى ** وَهِيَ فِي يَدِ النَّبِيِّ إِنْ تَضَاءُ

وأما عرق النبي صلى الله عليه وسلم فيشبه المسك لأجل رائحته الطيبة وذلك في قوله: ^{٢٤}

كَانَ كَالْمَسْكِ يَقْطُرُ الْجِسْمُ مِنْهُ ** عَرَقاً عَنِ مَدَاهُ يَكْبُو الْكِبَاءُ

ويحتل حقل الثقافة المنزلة الأخيرة من حيث الاستعمال، ويحتوي هذا الحقل على ما يجنيه الشاعر من صور يقتطفها من نظره في المعارف الإنسانية، أو مالا يدرك ذهن الإنسان حقيقته، إلا إذا سمت نفسه إلى القيم الخالدة. ويعد أعلام الأشخاص والأماكن من أهم ما استعمله النبھاني في ديوانه من هذه الناحية، ومن أمثله قوله^{٢٥}:

كلُّ معنًى بلقىسُ والبيت صرُحٌ** ومنَ الدرِّ لا الزجاج البناءُ

إنه شبه منزلة المعاني التي تضمنتها أبيات قصيدته في الرفعة، بلقىس ملكة سبأ المشهورة، التي جاءت قصتها في القرآن الكريم.

أما سيدتنا خديجة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم فإنها تشبهه نبي الله هارون عليه السلام لشدها أزر النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل نبي الله هارون عليه السلام لسيدنا موسى عليه السلام، فيقول في ذلك^{٢٦}:

فهَيَّ هارونُهُ بِها اللهُ شدَّ الـ** أزرَ من هو ما بها إزراء

أما الظبية التي تكلمت مع النبي صلى الله عليه وسلم فشبهت بالخنساء الشاعرة المشهورة برثائها لأخيها صخر^{٢٧}:

غيرُبدعٍ أن أفصحت ظبيةً القا** ع بنطقٍ فإنَّها الخنساء

كما شبه أهل البيت بالسفينة مستوحيا ذلك من سفينة سيدنا نوح عليه السلام^{٢٨}:

أنتم للنجاة خيرُ سفينٍ** كلِّما فاضني البرايا البلاءُ

ومن أعلام الأماكن التي جاءت في القصيدة "البطحاء" التي شبه بها البصرى حينما أشرقت الدنيا بنور مولده اسمع إليه حين يقول^{٢٩}:

أبصرت نوره أنارَ بُّبصرى** فرأتها كأَّها البطحاءُ

أنواع التشبيه في طيبة الغراء

تمشيا بمنهج البلاغيين المعاصرين، يدرس الباحث الظواهر التشبيهية اللافتة في طيبة الغراء من خلال ثلاثة محاور وهي: البنية التركيبية للصورة التشبيهية، ثم حسيتها أو تجريدتها، ثم بساطتها أو تركيبها.

أ/ البنية التركيبية لتشبيهات طيبة الغراء

يتكون التشبيه من حيث بناء جملة وتراكيبه على أربعة عناصر، وهي: المشبه والمشبه به، وتسمى طرفي التشبيه ولا بد من وجودهما، والعنصر الثالث هو الصفة المشتركة بينهما، ويذكر مصرحاً أو ملوحاً إليه، كما يمثل الرابط بين طرفي التشبيه العنصر الرابع، وقد يذكر، أو يحذف طبقاً للتجربة الشعورية التي يعيشها المبدع.^{٣٠}

ويرأس قائمة التشبيهات في طيبة الغراء، ما أضمر أدواته لبلوغ ما أحصاه الباحث (٧٢) تشبيهاً، ويعود ذلك إلى كون الممدوح هو الرسول الذي تفوق أوصافه الخلقية والخلقية المواد التي قد يحاول الشاعر تشبيهه بها، فحذف الأداة إذن يعنى رفع الحواجز الدلالية بين المشبه والمشبه به، لتتحول إلى كيان واحد، كقول النبهاني^{٣١} في تصوير ما يحتويه صدر النبي صلى الله عليه وسلم من العلوم والمعارف:

هو بحرٌ ولسنٌ أدري وقد شقَّ** قَ لِمَاذَا لَمْ تَغْرُقِ الأَرْجَاءُ
هُوَ بِحْرُ التَّوْحِيدِ فَاضٍ وَكَلَالٌ** أَرْضَ بِالشَّرْكِ بِقَعَّةٍ جَدْبَاءُ

نبح النبهاني في البيت رقم (١٨٦) في رسم صورة العلوم والمعارف المطوية في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بالبحر، في سعتها وغزارتها حتى أنه تعجب، لماذا لم تغرق أرجاؤه بعد شقه، ثم استعمل تقنية تكرار البداية فكرر نفس الصورة التشبيهية ولكنه في هذه المرة، جاء بتفسير يكشف الغطاء عن نوع البحر الذي يتحدث عنه، وهو توحيد الله سبحانه وتعالى، وقبل فيض هذا البحر المبارك كانت الأرض تعاني من القحط والجذب لما انتشر فيها من الشرك وعبادة الأصنام، فحذف الأداة في الصورة المذكورة يشير إلى أنه

لا يعرف أحد قدر ما يعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم من العلوم والمعارف إلا الله سبحانه وتعالى، كما أنه لا يعرف قدر ماء البحر إلا الله سبحانه وتعالى لكثرتة. أما معجزات النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لما أراد أن يشبها بالنجوم في الكثرة والإشراق حذف الأداة كي يستطيع أن يدعى أن نجوم الزهر يمكن أن تحصى بخلاف معجزات القرآن التي لا تعد ولا تحصى، قائلًا: ٣٢

كثرت مُعجزاته فـالنجومُ الزُّ * * زهُرٌ تُحصى وما لها إحصاءُ

أما التشبيهات التي ذكر فيها الرابط بين الطرفين فيبلغ عددها (٤٢) وتلعب الأدوات دور المنبه الأسلوبي الذي يلفت انتباه المتلقي إلى وجود التشبيه كما جاء في قوله:

أَعْقَلُ العَاقِلينَ فِي كُلِّ عَصْرِ * * عَقِلْتَ عَن لِحَاقِهِ العُقَلَاءُ
عَقْلُهُ الشَّمسُ وَالعُقُولُ جَمِيعاً * * كَخُيوطٍ مِنْهَا حَوَاهَا الفُضَاءُ

جاء هذين البيتين في سياق حديث النهائي عن وصوله إلى روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث بهرته الأنوار المحمدية المنتشرة فيها، فأخذ يمدحه بأوصاف متعددة، ومنها كونه أعقل العاقلين قاطبة، ومن عقله تستمد جميع العقول، فجاء في البيت (٧٧)، وصور عقله بالشمس في تركيب إسنادي دون استخدام الأداة والوجه، ليترك للمتلقي مساحة واسعة لتحليل الصفات المشتركة بين عقله والشمس، وفي التشبيه الثاني الذي يتضمنه البيت ذكر الأداة، والمشبه هو عقول غير النبي صلى الله عليه وسلم التي شبها بالكواكب المتعلقة بالخيط في الفضاء، بمعنى أن المجموعة الشمسية تستمد نورها من الشمس، كما تستمد عقول جميع الخلق علومها ومعارفها من نور عقله صلى الله عليه وسلم.

ولما تذكر شاعرنا انقياد عالم النبات لسيدنا محمد رسم لنا لوحة فنية جميلة، صور فيها الأرض ماء والشجرات سفنا، وعند ما دعا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأشجار أقبلت إليه تشق الماء مسرعة كما تجري السفن في الماء:

وَأَتَاهُ مِنَ الْفَلَا شَجَرَاتٌ** إِذِ دَعَاهَا كَالسَّفِينِ وَالْأَرْضِ مَاءً

وقد يكون المنبه اسما يقع خبرا لمبتدأ في جملة اسمية كما جاء في تصويره للمتلقين تجرته الشعورية حيث عجز عن إعطاء مادحة كل ما يستحقه، واعترافه بالعجز، ولكن هذا لم يكن مقصورا عليه، بل شمل جميع المادحين له صلى الله عليه وسلم؛ لأن كل ما قالوه إذا قيس بشمائله وخصائصه ومنزلته عند الله لا يجاوز مقدارها الندى مقارنة بماء البحر:

هو والله فوق كل مديح** أنشدتها لرواه والشعراء

كل مدح له وللناس طراً** كان فيه من مادح إطرأ

هو منه مثل الندى سيق للبح** روأين البحار والأنداء

أما ما يتعلق بالتشبيهات التي ذكر فيها وجه الشبه على صورتها الخاصة، أي أن يذكر مجرورا أو منصوبا على التمييز بمعنى "في"،^{٣٣} وهذا النوع من التشبيه يقيد خيال المتلقي ويحصره في وجه واحد يذكره المبدع، ولكنه يساهم في تشكيل صورة واضحة كوضوح الشمس، ولم يرد هذا الشكل بكثافة في طيبة الغراء مقارنة بالأشكال الأخرى، لأن ما رصده الباحث لم يجاوز (١١):^{٣٤}

وسرى في الجدود كالروح سرا** صانه الأمهات والآباء

صور النبهيانية كيفية انتقال النور الأحمدى من أصلاب أجداده بكيفية انتقال الأرواح، والرابط المعنوي بينهما هو أن كليهما يسير في خفاء، أي لا يرى بعيون مجردة، يلاحظ أن وجه الشبه سرا ساهم في توضيح الصورة للمتلقى بدون مشقة، ومن ذلك قوله:^{٣٥}

جاء كالدرّة اليتيمة فرداً** تيم الكون حسنه الوضأ

شبه الرسول صلى الله عليه وسلم باللؤلؤ في جماله الذي لا نظير له، ووجه الشبه هو "فردا" أي كلاهما لا مثيل له، فقد عمق وجه الشبه العلاقة بين طرفي التشبيه، ما أعطى التشبيه دورا فعالا على المستوى الدلالي للصورة التشبيهية. ومما جاء في هذا المضمار قوله: ٣٦

أقبلوا كالحبوبِ عدّاً فدارت ** فوقهم من حروبه أرحاءُ

رسم النبهي كثيرة جنود الكفار في غزوة حنين بالحبوب، ووجه الشبه هو "عدا" الذي استطاع أن يعين على رسم الصورة، وكما لا يستطيع أحد أن يعرف عدد الحبوب إلا الله سبحانه وتعالى، كذلك جنود الكفار لا يعرف عددها إلا الله. ويقابل هذا الشكل ما لم يحدد فيه المجال الذي يلتقي فيه المشبه والمشبه به، ليرتقى التشبيه إلى مستوى يعطي المتلقي مجالا واسعا للبحث عن العلاقات المعنوية بين الطرفين، وقد تؤدي هذه الحرية إلى الثراء والتنوع في الدلالة، بفضل تقدير أوجه شبه متعددة لدى المتلقي.

ومعظم تشبيهات شاعرنا من هذا النوع، مع اختلافها في درجة الظهور والخفاء، ومن أمثلة ما لا يحتاج في إدراك وجهه إلى كد لظهوره، قوله: ٣٧

لو أراد النبيّسالت دماءً ** من قريشٍ كأثما دماءُ

فالمشبه هو: "دماء قريش" والمشبه به "ماء النهر" والرابط بين المعنويين "كأن" ووجه الشبه محذوف، ولكن إدراكه سهل لظهور العلاقة بينهما وهي الكثرة. وكذلك قوله: ٣٨

ورأوا صحبه أسودا وأقوى ** الأسد بأسا ما ناله إزراء

شبه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالأسود في الشجاعة والإقدام، فوجه الشبه محذوف، لكن إدراكه سهل لشيوع تشبيه الفرسان بالأسود في الشجاعة والإقدام، ومن ذلك قوله: ٣٩

هو بحرٌ ولستُ أدري وقد شق ** ق لِمَاذَا لم تغرق الأرجاءُ

شبه كثرة ما يحتويه صدر الرسول صلى الله عليه وسلم من المعارف بالبحر ووجه الشبه محذوف ولكن إدراكه سهل لكثرة تشبيهه كل ما هو واسع وكثير بماء البحر لسعته وغزارته.

ومن التشبيه المحمل ما يحتاج في إدراك وجهه إلى تأمل وثقافة معينة، في إطار الموضوع الذي يتناوله المبدع، مثال ذلك قول النبهياني:^{٤٠}

عَقْلُهُ الشَّمْسُ وَالْعُقُولُ جَمِيعاً ** كَخَيْوِطٍ مِنْهَا حَوَاهَا الفَضَاءُ

شبه النبهياني في هذا البيت منزلة عقل النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة الشمس في نظام المجموعة الشمسية، وشبه عقول باقي الخلق بباقي الأجرام في المجموعة الشمسية، ووجه الشبه محذوف، وهو أن جميع الخلق يستمدون أنوارهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تستمد باقي الأجرام أنوارها من الشمس، وهذا الوجه لا يدرك إلا بعد تأمل وثقافة واسعة.

وأما الشكل الأخير فهو الذي يسميه القدامى المقعدون بالتشبيه البليغ، ويرى المحدثون أن في هذه التسمية تحني على التشبيهات التي لم تشكل على هذه الصورة لأن جودة التشبيه لا يعود إلى الذكر، أو الحذف، وإنما يعود إلى نجاح المبدع في نقل تجربته الشعورية إلى المتلقي بصورة فعالة، وقد عرف هذا النوع من التشبيه أحمد مطلوب بـ^{٤١} "التشبيه الذي يحذف فيه وجه الشبه وأداة التشبيه"، فهذا يدل على أنه اجتمع فيه حذفان لكل منهما أثره الدلالي، فبتحقيق هذه التقنية يتحول العنصران: "المشبه والمشبه به" إلى التوحد والاندماج. ومع أن الشاعر حذف وجه الشبه في كثير من صورته التشبيهية، إلا أنه لم يتفق حذفه مع الأداة إلا في تشبيهات قليلة، لا تتجاوز (١٣) ما يمثل ١١,٢% تشبيها حسب ما رصده الباحث، ومن أمثلتها قوله:^{٤٢}

لَمْ يُرَاجِمِ مَدَّاحَكَ البَعْضَ بَعْضاً ** أَنْتَ بَحْرٌ وَالمَادِحُونَ دَلَاءٌ

فالصورة التي يشكلها النبهاني هي كثرة شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم ما يعطي الفرصة لكل واحد من الشعراء، أن يدي بدلوه دون مزاحمة بينهم؛ لأن شمائله صلى الله عليه وسلم بحر، والمادحون دلاء، ويستحيل أن تؤثر الدلاء في ماء البحر، فحذف الأداة ساعد على تحويل المشبه إلى المشبه به " أنت بحر، والمادحون دلاء"، كما أن حذف الوجه يفيد العموم والشمول، فهذه الشمائل تماثل البحر في سعته، وكثرة مائه، وما يحتويه من النفائس، وما يظهره من الهيبة وغيرها. ومما جاء في هذا المضممار قوله: ^{٤٣}

هُم سِيُوفٌ لِلْمُصْطَفَى وَرِمَاحٌ** وَهُوَ رَأْسٌ وَهُمْ لَهُ أَعْضَاءُ

شبه النبهاني أصحاب النبي بالسيوف والرماح في صدر البيت، يقاتل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم الأعداء كما يقاتل الفارس بسيفه ورمحه، لكنه حذف الأداة ما أكد الاتحاد بين المشبه والمشبه به، ثم حذف الوجه ليعطي الصورة فضاء واسعاً يدخل فيه كل دور تقوم به السيوف والرماح لدى الفرسان في المعارك. ولم يختلف عجز البيت عن صدره لأنه صور منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه بمنزلة الرأس في جسم الإنسان، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الرأس وأصحابه رضوان الله عليهم هم الأعضاء، فحذف الأداة ووجه الشبه ما أعطى الصورة قوة وشمولية. ومن ذلك قوله: ^{٤٤}

كَلُّ حَرْفٍ سَيْفٌ وَرِمْحُوسُهُمْ** وَجُنُونٌ ثَرَّةٌ حِصْدَاءُ

يصور الشاعر القرآن الكريم في هذا البيت بأنه سلاح يحارب به الرسول صلى الله عليه وسلم عقول الكفار، فكل حرف من حروفه أداة من أدوات القتال المتعددة، كالسيوف والرماح والسهام والدروع، وهذا إشارة إلى النواحي المتعددة لإعجاز القرآن. وحذف الأداة والوجه رفع منزلة الصورة إلى أعلى درجة من البلاغة لاشتماله على دعوى الاندماج بين طرفي التشبيه، وفسح المجال للمتلقي أن يتخيل الوجوه المتعددة في الصورة.

الهيكل الفنية في تشبيهات طيبة الغراء

يحاول الباحث هنا الحديث عن أهم الهياكل الفنية التشبيهية التي أبدعها النبهاني في التعبير عن مشاعره وتجاربه تعبيراً جميلاً وفعالاً يستطيع بها أن ينقل إلى المتلقي بعض ما يشعر به ويعايشه في تجربته الشعورية، وهي متعددة قي طيبة الغراء، منها ما تكون الصورة التشبيهية فيها مفردة وما تكون متعددة، أو مركبة، ومنها ما تكون الصورة قصيرة ومنها ما تكون طويلة ممتدة.

أما التشبيهات المفردة فمعظمها تتجلى في منطقة قصيرة من صدر البيت، أو عجزه، أو بينهما لتصور أفكاراً جزئية قاطفة من دون الدخول في التفاصيل، ومعظم هذه التشبيهات جاءت في سياق حديثه عن شمائل النبي صلى الله عليه وسلم كقوله:

هُوَ بَحْرٌ وَلَسْتُ أَدْرِي وَقَدْ شَقَّ * قَ لِمَاذَا لَمْ تَغْرِقِ الْأَرْجَاءُ

يصور لنا هنا ما أودعه الله سبحانه وتعالى في صدره من العلوم والحكم، أما في الشجاعة فإنه كالليث مستعد لمواجهة الشرك والمعتقدات المنحرفة عن الفطرة:

وَالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ كَاللَيْثِ يُرْدِي الشَّ * شَرَكٌ مِنْهُ تَقَدَّمُوا ِحْتِرَاءُ

ومما استعان به النبهاني في تشكيل صورته ما يُطلق عليه التشبيه المتعدد، حيث يشعر بعدم تمكن المشبه به على احتواء ما يريد تصويره، فيزيد مشبهات به أخرى، لعلها تستطيع أن تعبر عن أهدافه كما جاء ذلك في سياق حديثه عن الشريعة الإسلامية:

شَرَعُهُ الْبَحْرُ وَالشَّرَائِعُ بَحْرِي * مِنْهُ إِمَّا جَدَاوِلٌ أَوْ قِنَاءُ

يحاول الشاعر في البيت السابق أن ينقل إلى المتلقي ما يشعر به من عظمة الشريعة الإسلامية وسعتها، فوصفها بالبحر، أما الشرائع الأخرى التي تستمد شرائعها منه، فهي كالجداول والقنوات التي تستمد ماءها من البحر، فقد تردد النبهاني في كفاءة الجداول فزاد عليها القناء.

أما أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين شربوا من بحر علومه ومعارفه بعد أن كانوا من قبل غارقين في ظلمات الجهل والأمية، فقد تحولوا إلى علماء تفيض منهم العلوم والمعارف فشبههم بالبحور والأنواء.

وكذلك عند ما نظروا إلى عظمة القرآن الكريم وبراهينه التي صرعت عقول الجبابرة والعباقرة، ودافعت عن وحدانية الله ونبوة سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فاستطاع أن يدافع عن نفسه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، شبه كل حرف منه بمشبهات متعددة قائلًا:

كُلُّ حَرْفٍ سَيْفٌ وَرَمْحٌ وَسَهْمٌ** وَمِحْنٌ وَنَشْرَةٌ حَصْدَاءُ

أما توظيف التشبيه المركب في صور طيبة الغراء فإنه قليل إذا قيس بغيره، ومن نماذجه ما جاء في سياق حديثه عن وصول الرسول وأصحابه إلى أرض بدر، حيث يقول:

طَلَعُوا فِي سَمَاءِ بَدْرِ جُجُومًا** بَيْنَهُمْ سَيِّدُ الْأَنْامِ ذُكَاءُ

فقد صورها النبھاني في صورة السماء والصحابه الذين نزلوا عليها بالنجوم، والرسول الذي يسير في وسطهم بالذكاء، فالصورة التي شكلها لنا الشاعر هنا ليست مفردة ولا متعددة، لعدم استقلالية أي جزء منها، وإنما هي منتزعة من عناصر متعددة، فركبت تركيباً فنياً لتتنقل لنا صورة وصول النبي إلى ذلك المكان بأسلوب جميل يثير عواطفنا ومشاعرنا، فنشعر كأننا حاضرون في ذلك المشهد العظيم.

وكذلك عند ما يتحدث عن منزلة الرسول يوم المحشر حيث يقود الأنبياء والمرسلين:

فَهُوَ كَانَ الْوَسِيطَ فِي خَيْرِ قَوْمٍ** حَوْلَهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ

كَمَلِيكَ بِهِ أَحَاطَتْ جِيُوشٌ** مِنْهُمْ الْحَارِسُونَ وَالْأَمْرَاءُ

فالصورة التشبيهية التي شكلها لنا النبھاني منتزعة من عناصر متفرقة، بها استطاع أن يرسم لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه الأنبياء في ذلك المشهد بصورة ملك يسير في موكبه ومعه وزراؤه وحاشيته وحراسه.

وقبل أن نختتم الهياكل التشبيهية في هذه القصيدة نتطرق إلى طبيعة ورود التشبيه في هذه القصيدة من حيث انحصاره في بيت واحد، أو امتداده خارج نطاق البيت، وما يمكن أن يلعبه ذلك في إحكام القصيدة وتلاحم أجزائها. ويتأمل القصيدة يظهر جلياً أن معظم تشبيهاتها منحصرة في نطاق البيت، فإذا كان المشبه ضميراً منفصلاً يتم تشكيل التشبيه في صدر البيت كقوله:

هُوَ مِنْ عِلْمِهِ كَقَطْرَةٍ بَحْرٍ * وَعَدَا الْبَحْرَ غَايَةً وَابْتِدَاءً

ومن ذلك قوله:

أَنْتُمْ لِلنَّجَاةِ خَيْرُ سَفِينٍ ** كَلَّمَا فَاضَّغِي الْبَرَايَا الْبَلَاءُ

فقد تم تشكيل الصورة التشبيهية في صدر البيت، وجاء ما في العجز ليشرح لنا ما في الصدر.

ومع ذلك لم تخل القصيدة من التشبيهات التي جاءت في صدر البيت ولم يكن المشبه ضميراً منفصلاً، كقوله:

عَقَلُهُ الشَّمْسُ وَالْعُقُولُ جَمِيعاً ** كَخَيْوِطٍ مِنْهَا حَوَاهَا الْفَضَاءُ

وأما امتداد التشبيه خارج نطاق البيت الواحد، فإنه قليل في القصيدة، وإذا جاء وجدته لوحة فنية شكلها الشاعر بتشبيهات متعددة كقوله:

بَهَرَ النَّاسَ مِنْهُ خَلَقٌ فَمَا الشَّمْسُ ** سٌ وَخُلِقَ مَا الرُّوضَةُ الْغَنَاءُ

بَحْرٌ حِلْمٌ لَوْ قَطْرَةٌ مِنْهُ فَوْقَ الذِّ * نَارٍ سَأَلَتْ لَزَالَ مِنْهَا الصَّلَاءُ

فقد رسم لنا الرسول في صورة إنسان تمت صورته الخلقية والخلقية، فشبهه بالشمس من الناحية الخلقية والروضة الغناء من الناحية الخلقية، وأما حلمه فإنها تشبه البحر في سعتها وقطرة منها يكفي إزالة ما في النار من الحرارة .

تشبيهات طيبة الغراء من حيث إسناد طرفيها إلى الحسية والتجريد

إذا نظرنا إلى الصور التشبيهية التي وردت في طيبة الغراء من حيث المواد التي تشكل منها طرفا التشبيه، نجد أن المواد الحسية تفوز بنصيب الأسد فيها، وهذا ليس غريبا إذا تذكرنا أن حوالي (١٧٠) من مصادر صورته ترجع إلى بيئته بما تشمل عليه من الطبيعة والحيوان والإنسان والثقافة.

وبتأمل طرفي التشبيه من حيث الحسية والتجريد تتبلور أربع ثنائيات كما هو مبين

في الجدول التالي:

الرقم	النوع	العدد	النسبة
١	حسي/حسي	٨٧	٥١,١%
٢	مجرد/حسي	٨١	٤٧,٦%
٣	حسي/مجرد	٢	١,١٧%
	مجرد/مجرد	٠	

يشير الجدول السابق إلى هيمنة المواد الحسية على كل من المشبه والمشبه به في القصيدة، لحصوله على واحد وخمسين نسبة مئوية، و يعود السبب إلى كون محتويات القصيدة تدور على سرد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ما يحتاج إلى المواد الحسية أكثر من احتياجه إلى المعاني المجردة، أضف إلى ذلك أن الشاعر متأثر في تشكيل صورته بفلسفة الصورة الشعرية القديمة، ومشهور أن أكثرها مستقى من المواد الحسية.

ويلاحظ في الجدول غياب التشبيهات القائمة على طرفين مجردين، وندرة تشبيه الحسي بالمجرد، الذي لم يجاوز وروده مرتين فقط، أما تشبيه المجرد بالحسوس فقد فرض نفسه بنسبة لا بأس بها إذ نجده في (١٨) مرة ما يمثل ٤٧,٦%. وإذا سلطنا الضوء على الثنائية الأولى، وهي ما كان كلا طرفيه حسيا، نجد أن الشاعر وظف جميع المواد التي يمكن إدراكها بإحدى الحواس الخمس، ومن أمثلتها قوله:^{٤٥}

وَالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ كَاللَيْثِ يُرْدِي الشِّدَّةَ * شَرَكٌ مِنْهُ تَقَدَّمُوا جِتْرَاءُ

المشبه هو النبي صلى الله عليه وسلم والمشبه به الليث، ويدرك كلاهما بحاسة البصر. ومن أمثلة هذا النوع قوله: ^{٤٦}

كَانَ لَيْثُ الْحَرِيرِ فَيَرَا حَتِيئَهُ * وَشَذَا الْمَسْكَ فِي هَمَّا وَالذِّكَاؤُ

المشبه راحة النبي صلى الله عليه وسلم والشريفة، والمشبه به الحرير ووجه الشبه الليونة، ووسيلة الإدراك اللمس وهكذا.

أما أمثلة تشبيه المجرد بالحسي فمن أمثله قول النبھاني: ^{٤٧}

وَسَقَاهُ بُحُورَ عِلْمٍ فَعِلِمٌ أَل * خَلَقَ مِنْهَا كَالرَّشْحِ وَهُوَ الْإِنَاءُ

المشبه علم الخلق وهو مجرد؛ لأن العلم لا يدرك بإحدى الحواس الخمس، والمشبه به هو الرشح أي الماء الخفيف، يلاحظ أن المشبه مجرد والمشبه به حسي. ومن ذلك قوله: ^{٤٨}

شَرَعُهَا الْبَحْرُ وَالشَّرَائِعُ تُجْرِي * مِنْهَا مَا جَدَاوِلُ أَوْقِنَاءُ

المشبه شريعة الإسلام والمشبه به البحر، يلاحظ أن المشبه مجرد والمشبه به محسوس وهو البحر، وكذلك قوله: الشرائع الذي شبهه بالجداول، ومما جاء في هذا المضمار قوله:

سَوْفَ يَبْدُو فِي الْحَشْرِ جَاهُكَ كَالشَّمْسِ * سِ مَتَى أَعَوَزَ الْأَنَامُ الضِّيَاءُ

المشبه هو جاه النبي صلى الله عليه وسلم ومنزلته الرفيعة وهو مجرد، والمشبه به نور الشمس الذي يخرج الناس من ظلمات الليل كما يخرج النبي الناس من ظلمات الجهل والكفر، ونور الشمس حسي.

الخاتمة:

من خلال ما سبق يدرك المتلقي أن الشيخ يوسف النبھاني استخدم التشبيه كوسيلة من وسائل تشكيل صورته الشعرية خصوصا ما اشتهر عند النقاد بالصور التقليدية التي تشمل التشبيه والاستعارة و الكناية.

وقد توصل البحث إلى أن التشبيهات التي حذف فيها الأداة هي المسيطرة على تشبيهات القصيدة، كما أنه يميل إلى تشبيه المحسوس بالمحسوس، أو تشبيه المجرد بالمحسوس، ولا تكاد تجد تشبيه المجرد بالمجرد، أو المحسوس بالمجرد إلا قليلا، وإذا ولينا وجهنا إلى بساطة تشبيهاته، أو تركيبها نجد أن أكثرها بسيطة، ولكن يوجد فيها بعض اللوحات المركبة الجميلة.

الهوامش والمراجع:

- ١ - النبھاني يوسف، شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٩٩٠م، ص ٣.
- ٢ - المرجع نفسه، ص ٤.
- ٣ - المرجع نفسه واصفحة ذاتها.
- ٤ - المرجع نفسه، ص ٧.
- ٥ - عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط ١، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ج ٢/ص: ١١٦٢.
- ٦ - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج ٥، ص ١٨.
- ٧ - العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، المكتبة العصرية، ٢٠٠٨، ص ١٣٦، ٧ -
- ٨ - قاسم، عدنان حسين، التصوير الشعري، الدار العربية للنشر، ٢٠٠٠م، ص ٩.
- ٩ - العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة، المرجع السابق، ص ١٤٤.
- ١٠ - النبھاني يوسف، المجموعة النبھانية، دار الفكر، بدون التاريخ، المجلد الأول، ص ٢١٧.
- ١١ - المصدر نفسه، ص ٢٤٤.
- ١٢ - المصدر نفسه، ص ٢١٠.

- ١٣ - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
- ١٤ - المصدر نفسه، ص ٢٢٧.
- ١٥ - المصدر نفسه، ص ٢٢٦.
- ١٦ - المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
- ١٧ - المصدر نفسه، ص ٢٣٨.
- ١٨ - المصدر نفسه، ص ٢١٤.
- ١٩ - المصدر نفسه، ص ٢٤٢.
- ٢٠ - المصدر نفسه، ص ٢٦٩.
- ٢١ - المصدر نفسه، ص ٢٤٣.
- ٢٢ - المصدر نفسه، ص ٢٧٢.
- ٢٣ - المصدر نفسه، ص ٢١٧٥.
- ٢٤ - المصدر نفسه، ص ٨٣.
- ٢٥ - المصدر نفسه، ص ٢٣٠.
- ٢٦ - المصدر نفسه، ص ٢٦٢.
- ٢٧ - المصدر نفسه، ص ٢١٥.
- ٢٨ - المصدر نفسه، ص ٢٧٩.
- ٢٩ - المصدر نفسه، ص ٢١٧.
- ٣٠ - المصدر نفسه، ص ٢١٩.
- ٣١ - المصدر نفسه، ص ٢٦٩.
- ٣٢ - مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان - ناشرون،
٢٠٠٧ م، ص ٣٤٨.
- ٣٣ - المجموعة النهائية، المصدر السابق، ص ٢١٠.
- ٣٤ - المصدر نفسه، ص ٢١٨.
- ٣٥ - المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

-
-
- ٣٦- المصدر نفسه، ص ٢٥٤ .
- ٣٧- المصدر نفسه، ص ٢٤٨ .
- ٣٨- المصدر نفسه، ص ٢١٩ .
- ٣٩- المصدر نفسه، ص ٢١١ .
- ٤٠- مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، المرجع السابق، ص ٣٣٠ .
- ٤١- النبهاني يوسف، المجموعة النبهانية، المصدر السابق، ص ٢٨٣ .
- ٤٢- المصدر نفسه، ص ٢٤٢ .
- ٤٣- المصدر نفسه، ص ٢٢٤ .
- ٤٤- المصدر نفسه، ص ٢٢٦ .
- ٤٥- المصدر نفسه، ص ٢٧٢ .
- ٤٦- المصدر نفسه، ص ٢٣٦ .
- ٤٧- المصدر نفسه، ص ٢١٠ .
- ٤٨- النبهاني يوسف، المصدر نفسه، ص ٢٧٦ .